مصير المرأة الاجتماعى

للدكتور عبد العزيز عزت

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب ومعهد الصحافة

إن مصير المرأة الاجتماعى — فى نظرى — هو الحياة العائلية ، لأن هـذه الحياة هى الخلية الأولى للمجتمع ، وهى المهد الأول لبزوغ المشاعر الانسانية الراقيـة التى توحد بين الناس وتجعلهم إخوانا ، وهى المعقل الأول والأخير للمرأة إذا وفقت فى الحياة أو إذا ضلت فيها كذلك .

فوظيفة المرأة الاجتماعية وظيفة عائلية تكون بها زوجة صالحة وأما نابهة ، وهذه وظيفة ليست أقل خطرا من الوظائف التى تشغلها خارج محيط الأسرة فى المجتمع ، فهذه الوظائف اقتصادية كانت أو قانونية أو طبية أو سياسية لم تخلق لها و إن احترفتها بعض النساء ونبغن فيها إلا أن نبوغهن ضرورة قاسية هى ارتزاقهن من طريق شريف أنقذهن من سلوك طريق آخر لا تحمد عقباه بالنسبة لهن خاصة وللمجتمع عامة ، فاحترافهن احتراف وقائى يمنع تحقق الفساد بحديه ، نعم قد يحترفن فى الأبواب المتقدمة وغيرها غير المحتاجات من النساء ولكن هـذا تطفل واضح لأنهن يقفلن أبوابا للرزق أمام المحتاجات من النساء والرجال على السواء وفى هذا جرم اجتماعى ، وتقول مدام دى ستايل فى هـذا الصدد " يجب أن تربى البنت دائما كى تصبح يوما ما شريكة للرجل فى حياته " .

وعليه أعرف المرأة " السليمة " من الوجهة الاجتماعية بأنها المرأة المتزوجة الموفقة فى زواجها والتى تربى أولادها تربيـة حسنة ، وغير ذلك من النساء أسميهن " شاذات " وأعتبرهن علة على المجتمع ، وأقصد بذلك أنواعا ثلاثة منهن : أولا المرأة التى لا تتزوج إطلاقا ، ثانيا المرأة التى تتزوج ولا تنجب ، ثالثا الأرملة التى لم تنجب ولا تتزوج ثانية .

الأولى تشغل المجتمع ولا يعود عليه منها نفع يذكر ، والثانية لاتساهم فى تغذية " الكثافة المـادية " للمجتمع — حسب تعبير دوركيم — أى لاتساهم فى ازدياد سكانه ، ولا تنقل أيضا " كثافته الأدبية " أى لا تلقن تراث الجمع ومظاهر حضارته للخلف ، والثالثة هى رمز التشاؤم منشر اليأس من حولهـا وهى قابعة فى ازوائها الأليم ـ نعم ، أنا لا أنكر أن الزواج فيه شىء كثير من تقدير الحظ ، ويخرج أحيانا ـ لظروف خاصة ـ عن ارادة الفرد ، فنحن لا يمكن أن نرغم الرأى الأول على الزواج ولا الثانية أن تلد فربما عامة ذلك أسباب فسيولوجية

فتعاق بالخلقة والتكوين الحسى ، وقد تكون أسباب وريثة لاذنب لها فيها انتقلت اليهن من الآباء ، وقد تكون أسباب نفسية ، فالمرأة بطبعها حساسيتها مرهفة وشعورها قوي وقد تبقى أحيانا كثيرة على ذكرى من أحبته وأخلصت له ، كل هذه أسباب حقه ولكن مناحى من اثبات هـذه الحـالات الثلاث الشاذة لبعض النساء فهى حاصلة بالفعـــل .

واذا تحددت حالاتهن هذه وعرفنها وجب عليهن أن يقاومنها مجهودين من شأنهما أن يخلقا و يغذيا حاستهن الاجتماعية هما أولا مساهمتهن فى التراث العقلى للمجتمع باهتمامهن بالفنون والآداب ، والعلوم ـ وأتعمد هـذا الترتيب ـ ثانيا بمشاركتهن فى الخدمة الاجتماعية بكل مالهن من سبل ميسورة خاصة اهتمامهن بمسألة الطفولة البائسة ، فهى تقربهن الى ادراك معنى الأمومة والبنوة ، و بتفاعل هذين المجهودين تصل النساء الشاذات الى مستوى المرأة السليمة التى تؤدى الخدمة الاجتماعية فى منزلها بين أولادها ، والتى يفترض فيها أيضا أن تكون على شيء كثير من الثقافة الفنية والأدبية والعلمية .

وعلى المرأة بنوعيهـا السليمة والشاذة أن تبتعد فى ثقافتها عن الأخذ بآراء كتاب الثورة الفرنسية والفلاسفة الاشتراكيين فى أمر الأسرة لأن مبادئهم هادمة لكيانها وتتنافى مع مصير المرأة الاجتماعى ، مثلا يكفى اقرارهم أن الزواج يبنى على عقد عرفى لا تدخل للدين فيه ، وأن الطلاق ممكن باتفاق الطرفين المتعاقدين ، وأن تربية الأبناء موكولة للدولة وللدولة فقط .

هذه مبادئ جامحة تقضى على هيبة الأسرة وما لها من قداسة فى نفوس أفرادها لأنهـا تصورها فى أذهانهم بأنها نظام تافه غير ثابت موكول لارادات الأفراد ، يعقدونه ، ويحلونه بمشيآتهم كأى عقد مدنى آخر ، وفى هذا امتهان لقدر العائلة التى يجب أن يتدخل فى تكوينها عنصر اسمى ، وأرقى من الارادات الفردية هو عنصر الدين الذى يجعل أفرادها مسئولين أمام قدرة أعظم من قدرتهم و إرادة أعلى من ارادتهم هى قـدرة الله و إرادته — فالزواج الذى لا يقوم على دعائم الدين فى أى مجتمع من المجتمعات لا تصبح المرأة فيه زوجة بالمعنى الصحيح و إنمـا تظل خليلة وعشيقة وهذا وضع يقضى على كرامتها ومصـيرها الاجتماعى ويحط من هيبة العائلة ويضيّع قداستها .

ثم أن هذه المبادئ تؤدى الى مساواة المرأة بالرجل وهذا خطر ذريع ، ليس لأن المرأة أضعف من الرجل فى تركيبها الجسمى أو فى مقدرتها الفعلية ، و إنمـا لأن الحياة العائلية تقضى أن يكون من بين أعضائها " المتقدم " و " المتأخر " . المتقدم عادة فى الأمم الراقية هو الرجل والمتأخر هو المرأة ، وهـذا التأخر لا ينبى على الأخذ من مقامها فهى " ربة العائلة

وسيدة الدار" وانما أبنيه على حب المرأة للرجل وتضحيتها من أجله ،لأن المرأة السليمة ترى فى هذا التأخر — اصطلاحا — نوعا من الجمال تشعر به فى داخليتها ويبلغ عندها حد الضرورة النفسية ، فكل إمرأة ، أراها تشعر فى قرارة نفسها بحاجتها الى حامى يذود عنها ويبادلها الحب الصادق ، والنساء المحترفات لمختلف الصنائع طرقن هذه الأبواب ليكملن فيهن نقصا وليحتلن عن هـذا الطريق فى جذب الرجال اليهن تارة بالمـال وتارة بالوظيفة وتارة ثالثـة بالشهرة عوضا من الطاعة والمحبة والتضحية. كلا المرأتين السليمة والمـاهنة تريدان أن تصلا الى نفس الغاية وهى إرضاء الرجل: الأولى عن الطريق الإنسانى وهو اتباع الفضائل الزوجية والثانية عن الطريق الصـناعى وهو قدرتها الخارجية فى الحياة ، نعم أن الرجل يعجب حقا بقدرة المرأة المـاهنة فى الحياة العامة ولكنه اعجاب لايبلغ حد حبه للزوجة الصالحة الفاضلة لأنه يعرف أن قدرة المراة الخارجية وضعت بادئ ذى بدئ على أسس عدائية له كالحسد منه والتكبر عليه ، والانتقام منه وغير ذلك ،والمرأة المـاهنة تعرف فى نفس الوقت أن المـال والوظيفة والشهرة ماهى إلا وسائل للحصول إلى غايتها الكبرى وهى حب الرجل لها ،ومن هنا شقاؤها الأكبر لأن الرجل يعرف مثلها أن كفايتها الخارجية وسيلة فقط وأن حبه هو الغاية ولهـذا وإن تعمت المرأة المـاهنة بمالهـا ووظيفتها وشهرتها فهى لا تزال فى داخليتها تشعر بنقص يكدر صفاء نفسها وهو البحث عن الرجل الصادق فى حبه لهـا والذى يرضاها زوجة له وأما لأولاده ، ولهـذا كانت المرأة الحديثة شقية بسبب سبلها الخاطئة ، وقلما يتحقق أيضا مصيرها الإجتماعى على الوضع الصحيح .

وأخيرا تؤدى مبادئ هؤلاء المفكرين الى القضاء على تهيئة النشء تهيئة اجتماعية صالحة، فان وكل أمر التربية للدولة اطلاقا فيه اضعافا للروح الاجتماعية عند الشباب لأن الدولة وان أمكنها — أحيانا كثيرة — أن تقوم بالتربية الجسمية والعقلية خير قيام إلا أنها لم تفلح الى الآن فى شئون التربية الشعورية والارادية عند الأفراد لأن هذا النوع من التربية من اختصاص العائلة وحدها ، ولا فائدة من أجسام النشء وعقولهم إن لم تقرن فى نفس الوقت بالمشاعر الطيبة التى توجد بينهم وبين الناس فى المجتمع ، وبالارادة القوية التى تجعـل من الشباب شخصيات فذة لهـا وجودها الفاعل فى الحياة الاجتماعية ، فالانسان المتعلم بحق هو الذى تنضج فيه عناصر النفس الأساسية كلها وهى العقل والشعور والارادة، وهما عناصر متحدة

لا تنفصل عن بعضها لطبيعتها ، والتربية التى تنصب على تقوية عنصر واحد فقط منها دون الآخرين ، تربية غير كافية لخلق المواطن الصحيح السليم — رجلا كان ذلك أم امرأة —

ولهذا كان من مستلزمات التربية الاجتماعية قيام الأسرة بجانب المدرسة ومساهمة المرأة بقسط وافر فيها لتهيئة النشء تهيئة اجتماعية صالحة ولتحقيق مصيرها الاجتماعى على الوجه الأكمل .

إذا عرفت المرأة آراء هؤلاء المفكرين الجامحة ولم تأخذ بها ، احترمت نفسها ، وفهمت قدر العائلة ، وأدركت مصيرها الاجتماعى وكانت بذلك عضوا نافعا فى الهيئة الاجتماعية التى لا تخطو خطوة إلى الأمام إلا إذا ساهمت المرأة فيها عن طريق الوضع الطبيعى الذى خلقت له لتؤديه فى المجتمع وهو أن تكون زوجة صالحة وأما نابهة ؛

عبد العزيز عزت